الفصل الأول

سلطنات ومشيخات جنوب اليمن في عهد النفوذ البريطاني (١٨٣٩-١٩٥٤م)

الفصل الأول
سلطنات ومشيخات جنوب اليمن
في عهد النفوذ البريطاني (١٨٣٩-١٩٥٤م)

الاحتلال البريطاني لعدن:

لا نود أن نخوض في تأكيد الأهمية التي يتمتع بها موقع اليمن في مجال الملاحة الدولية، فهي بدون شك ليس في موضع جدل، غير أن ما نود الإشارة إليه هو أن تلك الأهمية قد برزت في نظر البريطانيين، في أثناء تسابقهم المحموم مع دول أوربية أخرى للسيطرة على بلاد الشرق، فشركة الهند الشرقية البريطانية التي تأسست١٦٠٠م، أرسلت في سنة ١٦٠٩م سفينة بقيادة الكابتن "شاربي Sharpey"[(١)]، في محاولة منها لإقامة علاقاتٍ تجارية مع عدن والمخا، غير أن العثمانيين الذين كانوا يحكمون اليمن في ذلك الوقت، انتابتهم الشكوك في نوايا البريطانيين، ولذلك أفشلوا تلك المحاولة، وكذلك المحاولة التي لحقتها في العام التالي. ومع ذلك لم تفقد تلك الشركة الأمل، إذ عاودت الكرَّة مرة أخرى في سنة ١٦١٢م، فأرسلت إلى سواحل اليمن بعثة أخرى بقيادة القبطان "جون ساريز John Saris" وعلى الرغم من أن العثمانيين تساهلوا معها هذه المرة[(٢)]، لكنهم في كل الأحوال لم يمكنوها من تحقيق أهدافها التجارية.

ومع اشتداد المنافسة بين الدول الأوربية الاستعمارية، أصبحت اليمن هدفًا أكبر لمطامع تلك الدول، لاسيما بعد التفكك والتمزق الذي أصابها في أوائل القرن الثامن عشر. فالسلطات البريطانية التي كانت تفرض سيطرتها على الهند، سعت جاهدة للسيطرة على المفتاح الجنوبي للبحر الأحمر، حتى تُحكم

---

(١) Ingrams: The Yemen, Imams Rulers and Revolution, John Murray, London, 1963, p.46.

(٢) فتحي أبو طالب: الصراع الدولي على عدن والدور المصري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م، ص ١٧.

سيطرتها على جميع أنحاء المحيط الهندي، والممرات التجارية الدولية المرتبطة به، وظلت شركة الهند الشرقية البريطانية تتحين الفرصة الملائمة لتحقيق ذلك الهدف، إلى أن سجلت حملة نابليون على مصر المنعطف الحاسم، فبعد احتلال فرنسا لمصر سنة ١٧٩٨م، احتلت بريطانيا في العام التالي جزيرة "بريم" في مدخل باب المندب، وحاولت حكومة الهند أن تضفي شرعية على تواجدها في السواحل اليمنية، فسعت في سنة ١٨٠١م إلى الحصول على موافقة إمام صنعاء على تعيين مقيم بريطاني باليمن(١)، وكذلك على عقد معاهدة تجارية، غير أن عدم تجاوب الإمام مع تلك المطالب، في ظل شح المياه في جزيرة "بريم" دفع بحكومة الهند البريطانية إلى توجيه اهتمامها إلى المنطقة الساحلية الجنوبية من اليمن، فنجحت في سنة ١٨٠٢م، في توقيع معاهدة تجارية مع سلطان لحج الذي كان يفرض نفوذه على ميناء عدن(٢).

وتعززت حاجة البريطانيين إلى امتلاك قاعدة في هذه المنطقة المهمة، من أجل خزن الفحم الذي كانت تحتاج إليه السفن التجارية التي تمر عبر البحر العربي، فمسحوا سواحل حضرموت وجزيرة "سقطرى" للبحث عن مكان ملائم لذلك الغرض، واستقر رأيهم في نهاية المطاف على جزيرة سقطرى، وفي سنة ١٨٣٤م فاوضوا سلطان المهرة - الذي كان يبسط سيادته عليها - على شرائها، ولما رفض احتلوها في العام التالي بالقوة. لكن اضطراب طقسها خلال تلك المدة، أجبر البريطانيين على الانسحاب منها، بعد زمن قصير(٣).

ومرة أخرى برزت أهمية السواحل اليمنية في نظر البريطانيين، عندما أخذت جيوش محمد علي باشا حاكم مصر، تتوغل في جهات الجزيرة

---

(١) د. محمد عمر الحبشي: المرجع السابق، ص ١٠.

(٢) Europa Publications: The Middle East and North Africa, London, 1969-1970, P.72.

(٣) حمزة علي لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة، ١٩٦٠م، ص ١٨٤.

العربية[١]، فشعورهم حينئذ بأن مصالحهم، وطرق تجارتهم في الشرق مهددة بالخطر؛ دفعهم إلى عمل كل ما في وسعهم عمله لوقف التقدم المصري في اليمن. ففي الوقت الذي كانت فيه الحملة المصرية تفرض نفوذها على السواحل الغربية من اليمن، كان فيه الكابتن "هينس Haines" يحاول التقرب من مشايخ القبائل الجنوبية المجاورة لعدن بهدف إبعادهم عن ذلك النفوذ[٢].

ولا يستبعد أن يكون البريطانيون قد استغلوا - في أثناء التسابق بينهم وبين محمد علي للسيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر - حالة الجفوة التي كانت قائمة بينه والسلطان العثماني، فبعض المراجع تشير إلى أن رئيس الوزراء البريطاني، عرض على السلطان العثماني أن يوافق على سيطرة البريطانيين على عدن، مقابل دعمهم له في نزاعه مع محمد علي[٣]، وبعضها الآخر يرجح فكرة تواطؤ الدولة العثمانية مع البريطانيين للسيطرة على عدن[٤]. وانفرد المؤرخ أمين الريحاني في تأكيد منح السلطان العثماني (عبد الحميد) شركة الهند الشرقية فرمانًا لكي تؤسس في عدن وكالة تجارية ومستودعًا للفحم[٥]. وبصرف النظر عن صحة كل ذلك، فالمهم في الأمر أن البريطانيين اتخذوا من حادث غرق السفينة الهندية التي كانت تحمل العلم البريطاني قبالة سواحل عدن في نهاية ديسمبر **١٨٣٦**م، مبررًا للسيطرة على عدن التي تعد أفضل ميناء طبيعي في شبه الجزيرة العربية[٦].

---

(١) فرد هوليداي: نفس المرجع السابق والصفحة. د. جاد طه: سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية، ص٧٣.

(٢) البكري: في جنوب الجزيرة العربية، ص١٧.
Waterfield: Sultans of Aden, London, 1968, p. 32-35.

(٣) عادل رضا: تطور ومسار الحركة الوطنية في اليمن الديمقراطية، دار الهنا، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٥٨.

(٤) د. فاروق عثمان أباظة: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، (١٨٣٩- ١٩٦٧م) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص١٥٢.

(٥) أمين الريحاني: المرجع السابق، ص ٣٥٣.

(٦) فرد هوليداي: الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، ص١٠٧. د. جاد طه. سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية، ص ٧٣.

فعقب ذلك الحادث مباشرة، ضغطوا على سلطان لحج، للحصول على ميناء عدن بمبلغ زهيد، مستغلين في ذلك حجة التعويض عن بضاعة السفينة، التي استولى السلطان على معظمها.

وعلى الرغم من المماطلة والتسويف التي اتبعها سلطان لحج، في مفاوضاته مع الكابتن "هينس" قائد القوات البريطانية، التي قدمت إلى سواحل عدن تطالبه بالتعويض، وبشراء الميناء، إلا أن حكومة بومباي، التي كان يهمها تجنب الخسائر التي يمكن أن تنجم عن المواجهة العسكرية، وكذلك الحصول على تعاون السكان المحليين وتفاهمهم؛ ظلت تأمل حصولها على عدن بالطريقة السلمية[١]. وبعد طول انتظار استمر قرابة سنتين، اضطر البريطانيون، بعد أن استنفدوا الوسائل الأخرى، إلى استخدام القوة لاحتلال عدن في ١٩ يناير ١٨٣٩م.

ولم يكن احتلال عدن بالأمر الصعب على القوات البريطانية، على الرغم من محدوديتها، إذ لعبت عدة عوامل خاصة بالمنطقة لمصلحتهم، فالقبائل المتناحرة خلف عدن لم تكن مستعدة لتكوين جبهة واحدة للوقوف في وجه المحتل الأجنبي، كما أن ضعف تأثير سلطان لحج - على المستوى الإقليمي، بل وحتى على مستوى قبائله - أضعف موقفه في مواجهة البريطانيين، فبعض قبائل لحج التزمت الحياد في أثناء ذلك النزاع، والبعض الآخر مثل قبيلة "العزيبة" التي كانت على خلاف مع العبادل، سارعت إلى التقرب من البريطانيين، وعقدت أول معاهدة صداقة وسلام معهم في الجنوب[٢].

ولاشك في أن عدم وجود مرجعية دينية مؤثرة في المناطق المحيطة بعدن، التي كان يمكن لها دعوة السكان للجهاد ضد الأجانب المحتلين؛ من العوامل التي ساعدت البريطانيين على احتلال عدن، ومن ثَمّ الاستقرار الآمن بها.

---

(١) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٢) أ.إل. بلاي فير: تاريخ العربية السعيدة، أو اليمن، ص ١٦٣. حمزة علي لقمان. تاريخ عدن وجنوب الجزيرة، ص ٢٠١.

وفضلاً عن ذلك كله فقد كانت الأوضاع السياسية داخل اليمن في تلك المدة غير مساعدة على ظهور مقاومة يمنية شاملة ضد البريطانيين في عدن، فدولة الأئمة الزيدية كبرى الكيانات اليمنية حينئذ، التي أجبرت على التخلي عن الجنوب منذ عشرات السنين، كانت على درجة كبيرة من الضعف والتفكك، بسبب التناحر على كرسي الحكم. وأخيرًا فإنه يمكن القول بأن السياسة البريطانية نفسها التي حرصت على كسب ود زعماء قبائل الداخل بالهدايا والأموال، قللت من دوافع تلك القبائل ومبرراتها للمقاومة.

وهكذا جاءت المحاولات الثلاث الفاشلة، التي شنها سلطان لحج لاستعادة عدن خلال السنتين التاليتين لاحتلالها (١٨٤٠-١٨٤١م)[١]، لتعبر بوضوح عن ذلك الوضع العام في الجنوب الذي كان لا يخدم أعمال المقاومة فحسب، بل زيادة على ذلك شجع القبائل المجاورة لعدن على المزيد من التقرب إلى البريطانيين.

علاقة بريطانيا بحكام الجنوب بعد احتلال عدن:

حرص البريطانيون منذ البداية، وبصورة تلفت النظر، على اتّباع سياسة اللين والمرونة في علاقاتهم مع زعماء القبائل المحيطة بعدن، فبعد الاحتلال مباشرة عملوا على كسب ود سلطان لحج بمختلف السبل، وقرروا له تعويضًا ماليًا دوريًا عن الضرر الذي لحق بسلطنته بسبب ذلك الاحتلال، وحاولوا في الوقت نفسه التقرب، من خلال الهدايا والأموال، إلى بقية الزعماء القبليين الآخرين لاسيما القريبون من عدن، وغاية البريطانيين من وراء تلك السياسة لم تكن صعبة الفهم، فقد كان يهمهم جدًا إقرار الأمن والهدوء في عدن وما حولها، وتشجيع السكان على العودة إليها، حتى تنشط فيها حركة الميناء وتصبح المنفذ التجاري الوحيد لليمن.

(١) فاروق أباظة: المرجع السابق، ص ٢٤٥-٢٤٦.

وفي كل الأحوال فقد أثبتت تلك السياسة فاعليتها بشكل كبير، فخلال الشهر الأول فقط من احتلال عدن، زارها فضلاً عن سلطان لحج، سلاطين ومشايخ قبائل (**الحوشبي، ويافع السفلى، والفضلي، العقربي، والصبيحة**) وجميعهم وقعوا خلال تلك الزيارات على اتفاقيات تلزمهم بالسلام والصداقة مع بريطانيا[١]، التي أصبحت منذ ذلك التاريخ مسئولة عن المبالغ المالية التي كان يدفعها سلاطين لحج، لشراء ود زعماء تلك القبائل، ولدفعهم للحفاظ على أمن الطرق التجارية التي تمر في مناطقهم إلى عدن[٢]. وقد أخذت تلك الاتفاقيات ومعاهدات أمن الطرقات تتوسع مع مرور الوقت، لتشمل زعماء القبائل البعيدة من عدن مثل: **الضالع والعوالق السفلى**، الذين خصصت لهم بريطانيا كذلك منحًا مالية شهرية وسنوية.

ومنذ بداية ذلك الاحتلال، حرصت السلطات البريطانية في عدن على عدم التدخل في شؤون مناطق الداخل، وعلى عدم توريط نفسها في تلك النزاعات القبلية المزمنة، التي كانت تعيشها تلك المناطق، إلا بالقدر الذي يتفق مع المصالح البريطانية، فتلك النزاعات كانت لا تعنيهم إلا عندما كانت تهدد سلامة الطرقات التي تربط عدن بمناطق الداخل[٣]، فالطرقات الآمنة كانت تعني لهم الكثير: استمرار وصول المياه، واستمرار وصول المواد الغذائية اللازمة إلى عدن، وكذلك استمرار التبادل التجاري الذي سعوا إلى تنميته بين ميناء عدن ومناطق الداخل[٤].

وعلى الرغم من أن تلك الاتفاقيات التي أبرمها البريطانيون مع زعماء

---

(١) أ.إل. بلاي فير: المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) Colonel R.A Wauhope: The Boundary of the Aden Protectorate, note by, P.1.

(٣) فاروق أباظة: المرجع السابق، ص٢٥.
Waterfield: Sultans of Aden, P3.

(٤) Richard H. Sanger: the Arabian Peninsula, New York, 1954, P.214.

القبائل الجنوبية، ساعدتهم بدرجة كبيرة على تجنب المتاعب في عدن، إلا أنهم - بسبب حرصهم الشديد على توفير أقصى درجة من الأمن في عدن، في ظل نقص عدد قواتهم العسكرية - لم يكتفوا بها، بل عملوا على التغلغل بين رجال تلك القبائل، وجندوا مقابل المال عددًا منهم بصورة سرية مع بعض اليهود، لمدهم بالمعلومات اللازمة عن أي تحرك قد يستهدف زعزعة وجودهم في عدن(١)، وعمومًا فقد أثبتت تلك السياسة في مواقف عدة فائدتها للبريطانيين، ويكفي أن نشير في ذلك الصدد إلى أن المعلومات التي وصلتهم من هؤلاء الأشخاص عن تحركات العبدلي، كانت العامل الأساس الذي مكنهم من إحباط محاولاته التي سبق ذكرها لاستعادة عدن.

وفي كل الأحوال فلنا أن نتساءل عن السبب الذي دفع بالسلطات البريطانية في عدن، إلى اعتماد سياسة بذل الأموال لشراء الاستقرار في عدن، ولم تعتمد على السيطرة المباشرة على المناطق الداخلية التي كانت على درجة كبيرة من الضعف والتفكك؟ والحقيقة أن الإجابة على ذلك السؤال، بالنظر إلى الظروف المحيطة بالبريطانيين في عدن، ليست بالغة التعقيد، فهناك مجموعة من الدوافع أو الأسباب التي وقفت وراء تلك السياسة نذكر منها:

أولاً: كان يهم حكومة الهند البريطانية - التي كانت تعاني من مشاكل مالية وسياسية - من وراء السيطرة على عدن الأهداف التجارية بالمقام الأول(٢)، ولذلك سعت إلى تجنب أي خسائر أو التزامات جديدة تترتب على تلك السيطرة، فشجعت المقيم السياسي في عدن - في إطار اعتمادها على السياسة البريطانية المشهورة (فرق تسد) - على الاستعانة بالقبائل الموالية ضد القبائل المعادية(٣)، بدلاً من الاعتماد على طلب التعزيزات العسكرية.

---

(١) Waterfield: op. cit, P. 78-79.
(٢) د. فاروق أباظة: المرجع السابق، ص ٢٣١.
(٣) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ٣٥٢.

ثانيًا: لم يكن هناك أي تهديد جدي للوجود البريطاني في عدن من مناطق الداخل، فنظام حكم الأئمة الذي كان أكبر كيان سياسي في اليمن، كان حينئذ في حالة شديدة من الضعف، ومشغولاً في نزاعه مع حاكم عسير بعد خروج القوات المصرية من جهات اليمن، ولذلك لم يبد الإمام اعتراضه على احتلال البريطانيين لعدن، والأكثر من ذلك فقد حاول بعد سيطرتهم على عدن بقليل، وبالتحديد في سنة ١٨٤١م التقرب منهم والحصول على مساعدتهم، لتعزيز موقفه أمام خصمه الإدريسي(١).

ثالثًا: لم يكن في المناطق الداخلية الوعرة والجرداء، ما يثير طمع البريطانيين للسيطرة المباشرة عليها، ولذلك فضلوا التحكم بأوضاعها من بُعد، مستفيدين في ذلك من حالة التجزئة المفرطة التي كانت تعيشها، والتي جعلت التحكم بزعمائها المتناحرين أمرًا في منتهى السهولة.

رابعًا: وأخيرًا فإن بقاء بريطانيا بعيدًا عن الإدارة المباشرة لشؤون المناطق الداخلية، أمر سيخفف بكل تأكيد من التزاماتها المالية والعسكرية، وسيوفر لها مرونة كبيرة في تعاملها مع تلك القبائل، تمكنها من التدخل حينما تريد، وبالأسلوب الذي تراه مناسبًا.

وهكذا فقد تركت بريطانيا قبائل الجنوب غارقة في نزاعاتها الداخلية، حتى وإن كانت تلك النزاعات على مقربة من عدن، طالما أنها لا تهدد سلامة الطرقات التجارية العامة، فمثلاً لم تتدخل السلطات البريطانية في عدن عندما شن العوالق هجومًا كبيرًا على لحج سنة ١٨٤٧م(٢). لكنها لم تتهاون مع السلطان الفضلي الذي قاد قبائله للهجوم على لحج سنة ١٨٦٥م، بسبب قيام رجاله بنهب المسافرين وسلبهم في الطريق العامة قرب لحج، فوجهت إليه قوة عسكرية لم تكتف بإجباره على الانسحاب من أطراف لحج فحسب، بل

---

(١) Angrams: the Yemen,,Imams Rulers and Revolution, P54.

(٢) أ.إل. بلاي فير: المرجع السابق، ص ١٦٦-١٦٧.

ولاحقته إلى داخل بلاده ودمرت فيها عدة قرى منها "الكود" و"عمودية" قبل عودتها إلى عدن[١]، وعندما كرر اعتداؤه على الطريق العام في السنة التالية وجه إليه البريطانيون حملة تأديبية أخرى من البحر، فدكت ميناء شقرة وهدمت جميع قلاعه[٢].

ولم يتهاون البريطانيون، حتى مع سلطان لحج، الذي حرصوا باستمرار على إرضائه، عندما تعلق الأمر بشؤون الطرقات وتموين عدن، إذ وجهوا إليه في سنة ١٨٥٨م حملة تأديبية قاسية بسبب فرضه ضرائب زائدة على البضائع التي كانت تمر عبر بلاده[٣]. وكذلك على مياه الشرب في الشيخ عثمان التي كانت تدخل إلى عدن[٤].

وكان البريطانيون قد مارسوا ضغوطًا عدة على الخارجين عن طوعهم فبالإضافة على قطع المرتبات وتوجيه الضربات العسكرية، حرضوا وفق سياستهم التي أشرنا إليها قبل قليل، القبائل الموالية ضد القبائل الخارجة عن سيطرتهم، فمثلاً حرضوا العوالق السفلى، والعوالق العليا، ضد الفضلي عندما كانوا غير راضين عن مواقفه، ومارسوا عليهم ضغطًا لمنعهم من التعاون أو التعامل معه[٥]. وعمومًا فلم يكن من نتائج الأساليب البريطانية المتعددة - فيما يتعلق بتحقيق أمن الطرقات - تراجع زعماء القبائل المجاورة لعدن عن التعرض للطرقات فحسب، بل وتنافسهم على إظهار النوايا الحسنة تجاه البريطانيين.

وكان ذلك التقدم الذي حققته السلطات البريطانية في عدن، في علاقتها مع زعماء تلك القبائل، قد شجعها على الانتقال في تلك العلاقة إلى مرحلة جديدة، فبدلاً من التعامل معهم، الذي كان محصورًا عبر سلطان لحج، أخذت

(١) العبدلي: المرجع السابق، ص ١٥٧.
(٢) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ٢٤.
(٣) أ.إل. بلاي فير: المرجع السابق، ص ١٧٣-١٧٤.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٧١.
(٥) د. فاروق أباظة: المرجع السابق، ص ٢٥٧.

تتعامل معهم بصورة مباشرة، على الرغم من أن ذلك أزعج سلطان لحج كثيرًا[١]، فقد كان دفع المرتبات والاتصالات البريطانية بحكام الجنوب بوساطته، أمرًا له قيمة في نظر السلطان من الناحيتين المادية والأدبية.

وتجدر الإشارة إلى أن التحرك البريطاني باتجاه الاتصال المباشر بحكام المنطقة، كان قد ترافق مع نمو النشاط التجاري الذي بدأ يدب في ميناء عدن، فبعد أن ألغت فيه حكومة الهند الرسوم الجمركية وجعلته ميناء حرًا في سنة١٨٥٠م[٢]. سارع إليه التجار الأجانب بما فيهم الأوربيون، وانتقل إليه الكثير من تجار ميناء "المخا"[٣]، وتجار الموانئ المجاورة في جنوب البحر الأحمر التي اعترتها حالة من الضعف والتدهور نتيجة لتحول التجارة إلى عدن[٤].

وبهدف تأمين مزيد من النشاط التجاري لميناء عدن مع مناطق الداخل، وسع البريطانيون من دائرة أمن الطرقات حول عدن، فبعد أن كانت جهودهم تقتصر على الطرقات القريبة جدًا من عدن (في أراضي قبائل العبدلي، والفضلي، والعقربي) امتد اهتمامهم إلى الطرقات الأخرى في المناطق البعيدة، لاسيما التي ترتبط بمناطق شمال اليمن. ولتحقيق ذلك الهدف عملوا كل ما في وسعهم لدفع القبائل التي تعودت على العبث بأمن الطرقات مثل: **الصبيحة، والحواشب، والقطيبي**، إلى وقف مثل تلك الاعتداءات، إما من خلال قطع المرتبات والإعانات المالية، كما حدث مع السلطان الحوشبي في **١٨٦٩** م عندما تكررت اعتداءاته على الطريق التي تربط عدن ولحج بتعز، وإما من خلال معالجة الأسباب التي كانت تدفع إلى مثل تلك الأعمال، مثل النزاع بين العبادل

---

(١) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ١٥٢- ١٥٣.

(٢) باوزير: ميناء عدن، دراسة تاريخية معاصرة، دار الثقافة العربية الشارقة - جامعة عدن، الطبعة الأولى ٢٠٠١، ص ٢٠٠.

(٣) حسن صالح شهاب: عدن فرصة اليمن، ص ٢٤١.

(٤) د. فاروق أباظة: المرجع السابق، ص ٢٠٥.

والحواشب على منطقة "زائدة"[١]، وإما من خلال استعمال القوة، عندما كانت تفشل أساليب الإقناع والضغط المالي، مثل تلك الحملات التي شنتها في سنتي (١٨٧٠م، ١٨٧١م) على عشيرة المناصرة في الصبيحة، التي دأبت على التعرض للطرقات العامة[٢]. وعلى الرغم من أن تلك الحملات نجحت في إجبار تلك العشيرة حينها على الإذعان لمدة من الزمن، لكن بشكل عام فقد استمرت هي وغيرها من قبائل الصبيحة لا تخضع لأي سيطرة حقيقية.

علاقة بريطانيا بزعماء الجنوب بعد الاحتلال العثماني للشمال:

كانت الأهمية المتزايدة التي اكتسبتها سواحل اليمن في مجال النشاط التجاري البحري، بعد افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩م، قد أثرت بدرجة كبيرة على أوضاعه السياسية الداخلية، فعودة العثمانيين إلى مناطق اليمن الداخلية في سنة ١٨٧٢م بسبب تلك الأهمية[٣]، أزعجت البريطانيين في عدن، ودفعتهم من جهة أخرى إلى التغلغل في المناطق الداخلية لجنوب اليمن، لمواجهة خطر التهديد العثماني.

وكان العثمانيون قد تطلعوا، منذ نجاحهم في السيطرة على صنعاء، إلى جميع أراضي جنوب الجزيرة العربية، بما فيها عدن[٤]. فتقدموا في العام نفسه - الذي سيطروا فيه على شمال اليمن - من "قعطبة" إلى إمارة الضالع واحتلوا معظم أراضيها، وعزلوا حاكمها دون أن يلتفتوا إلى الاعتراضات البريطانية[٥]. وفي السنة التالية (١٨٧٣م)، انتهز العثمانيون فرصة استعانة **السلطان الحوشبي** بهم، لتدعيم موقفه في نزاعه مع السلطان العبدلي حول مياه "زائدة"، فوصلت إليه قوة عسكرية تركية أدخلت بلاده وجزءًا من "زائدة" تحت النفوذ

(١) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ٣٠.
(٢) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٣) Donald Foster: Lands Cape With Arabs, p. 28.
(٤) Sir Pernard Reilly: Aden and the Yemen. P. 16.
(٥) R.A Wauhope: The Boundary of the Aden Protectorate, p.1.

العثماني[١]، ثم تقدمت تلك القوة إلى أراضي **العلوي**، المجاور للحوشبي، وأجبرته كذلك على طاعتها[٢].

واكتسب توغل القوات العثمانية في جنوب اليمن، بعدًا خطيرًا، عندما أخذ يقترب من عدن، ففي سنة **١٨٧٣**م انتهزت تلك القوات الخلافات الدائرة داخل الأسرة الحاكمة في لحج[٣]، التي دفعت أخوي السلطان العبدلي اللذين كانا على خلاف معه للاستعانة بها، فتقدمت قوة تركية صغيرة إلى داخل "الحوطة" عاصمة لحج، ولم يستطع البريطانيون الذين لم تكن لديهم قوات عسكرية كافية في عدن، إيقاف ذلك التوغل العثماني في الجنوب الذي أثار حفيظتهم. وعوضًا عن ذلك استخدموا نفوذهم السياسي والدبلوماسي في الضغط على الحكومة العثمانية، الذي كان نتيجته، أن أمر الباب العالي والي اليمن بسحب الجنود الأتراك من أراضي القبائل الجنوبية التي ترتبط بمعاهدات مع بريطانيا[٤]، وهي المناطق التي عرفت في المعاملات الدبلوماسية بين البريطانيين والعثمانيين، بالنواحي (الكانتونات) التسع، وهو اصطلاح ظل قائمًا لمدة طويلة على الرغم من أن عدد القبائل التي دخلت في علاقات تعاهديه مع البريطانيين أصبح مع مرور الوقت أكثر بكثير من القبائل التسع الأساسية[٥].

بيد أن ذلك الحل لم ينه المشكلة تمامًا بين الدولتين في اليمن، إذ اتجهت أنظار السلطنة العثمانية إلى المناطق الشرقية من الجنوب، التي لم تدخل بعد بمعاهدات سلام وصداقة مع البريطانيين. وقد أقلق ذلك الأمر السلطات البريطانية في عدن مرة أخرى، فعملت على تكثيف اتصالاتها بسلاطين تلك

---

(١) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ٣٠.
(٢) جه. دبليو. ميروثر: (مساعد المقيم السياسي في عدن). سيرة القبائل العربية حول عدن، بومباي، ١٩٠٩م، مطبوع بالإستنسل، ص ٧٠.
(٣) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ٢٧٦.
(٤) نفسه، ص ٢٧٨.
(٥) Reilly: Aden And The Yemen, p. 16.

المناطق (الواحدي، حضرموت، المهرة)، لدفعهم إلى تفويت الفرصة التي كان يبحث عنها العثمانيون هناك.

وفي كل الأحوال فقد دفعت التهديدات العثمانية المستمرة للمصالح البريطانية في الجنوب، إلى اتخاذ الأخيرة عدة خطوات عملية رأت أنها ضرورية، لتعزيز ارتباطها بحكام السلطانات والمشيخات الجنوبية من جهة، ولإبعاد خطر التهديدات العثمانية عنها من جهة أخرى، نذكر منها:

أولاً - توسيع مساحة مستعمرة عدن:

عمل البريطانيون في عدن، بعد اندلاع نزاعهم مع العثمانيين حول أحقية السيادة على مناطق الجنوب، على بسط سيطرتهم على الأراضي المحيطة بعدن، لضمان حماية المدينة والميناء من أي هجوم محتمل من جهة الداخل، فنجحوا بعد أن استعملوا أساليب الترغيب والترهيب في شراء منطقة الشيخ عثمان في شمال عدن من العبدلي في سنة١٨٨٢[١]، وكذلك المنطقة المجاورة لها من جهة الغرب حتى عدن الصغرى من العقربي في سنة ١٨٨٨م[٢].

ثانيًا - التدخل في حل النزاعات الداخلية:

كذلك دفع ذلك التهديد العثماني، بالسلطات البريطانية في عدن إلى التدخل في حلّ النزاعات المحلية في مناطق الجنوب، حتى لا توفر تلك النزاعات مبررًا لبعض زعماء القبائل للجوء إلى الجانب التركي لتقوية مواقفهم أمام خصومهم، ففي سنة ١٨٨١م تدخل المقيم السياسي في عدن لحل مشكلة الحدود بين **الفضلي والعبدلي**[٣]، وكذلك مشكلة أراضي "زائدة" بين **العبدلي والحوشبي**[٤]. وحاول المقيم في سنة ١٨٧٦م حل مشكلة مياه "النازعة" في

(١) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ٨.
(٢) سي. يو. ايتشيسن: المرجع السابق، ص ١٠٩.
(٣) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ١٩٠.
(٤) مجهول المؤلف: المرجع السابق، ص ٣٠.

أبين بين **الفضلي واليافعي**[١]. وكذلك تدخل في سنة **١٨٨٦م** لحل الخلاف القائم بين **العوالق العليا والفضلي** حول بناء حصن على مقربة من الحدود التي تفصلهم[٢]. وتدخل كذلك في سنة **١٨٨٣م** لوقف هجوم **العوالق السفلى** على **الفضلي**[٣]. وأجبر **العبدلي** في سنة **١٨٨٧م** على الانسحاب من الأراضي التابعة **للعقربي**[٤].

وتدخلت السلطات البريطانية كذلك، في النزاعات القائمة حينها في حضرموت، بين **الكثيري والقعيطي**، وبين **القعيطي والكسادي**، وذلك خوفًا من أن تسمح تلك النزاعات بأي شكل من أشكال التدخل الخارجي، ولم تلتزم الحياد في ذلك التدخل، وإنما انحازت لمصلحة الحكام الأكثر ولاء، ففي سنة **١٨٨١م** أجبرت الكسادي على التنازل عن المكلا وبروم لصالح القعيطي[٥]. وفي سنة **١٨٨٤م** وجهت تحذيرًا للسلطان الكثيري الذي شرع في الإعداد لحملة عسكرية لإعادة سيطرة آل كثير على الشحر والمكلا، وأعلنت أنها لن تنظر بعين الرضا لأي هجوم من ذلك القبيل، وأنها عند الضرورة سترسل سفينة لمساعدة القعيطي[٦].

ثالثًا - تدعيم سلطة الحكام المحليين:

سعت السلطات البريطانية في عدن إلى تشجيع بعض السلاطين والأمراء الموالين لها، على ضم المناطق القبلية الخارجة عن السيطرة مثل الصبيحة، والقطيبي، بهدف تدعيم الاستقرار في تلك المناطق، ففي سنة **١٨٨١م** شجعت

---

(١) J.W.Merewether: The Arab Tribes In The Vicinity of Aden, Bombay, 1909.p.70.

(٢) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ٣٧.

(٣) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ١٩٠-١٩١.

(٤) مجهول المؤلف: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٥) Records of Yemen Volume, 4, p 628.

(٦) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

السلطات البريطانية في عدن سلطان لحج على ضم قبائل الصبيحة إلى سلطته[١]. غير أن ذلك الوضع لم يدم طويلاً، فبموجب اتفاقية ذلك الضم التي لم يشترك فيها أحد من زعماء قبائل الصبيحة، ألزمت بريطانيا سلاطين لحج بالمسئولية عن أي أعمال سلب أو نهب تقوم بها تلك القبائل، وبالتعويض عن أي خسائر أو أضرار ترتكبها[٢]. وفي ظل الصعوبات التي واجهتها سلطنة لحج في السيطرة على قبائل الصبيحة، شكّل ذلك الاتفاق عبئًا كبيرًا عليها، دفع سلطانها في الأخير إلى عرض شكواه على حكومة عدن[٣]، ومن ثَمَّ تخليه عنها نهائيًا في سنة ١٨٨٦م[٤].

وكذلك حاول البريطانيون في عدن في تلك المدة، إخضاع بلاد الحواشب لإدارة سلطان لحج، بموجب اتفاق شارك في التوقيع عليه - إلى جانب المقيم السياسي البريطاني وسلطان لحج - بعض أعيان الحواشب، وذلك بعد أن تدهورت علاقتهم بحاكمها بسبب الضرائب المرتفعة التي كان يفرضها على الطريق التي تربط عدن بتعز، غير أن تلك العملية هي الأخرى كلّفت سلطان لحج الكثير من المتاعب والالتزامات[٥]، ودفعته في الأخير إلى إعادة بلاد الحواشب لسلطانها، بعد تسوية خلافه مع البريطانيين في سنة ١٨٩٥م[٦].

وفي إطار تلك السياسة البريطانية، شجعت حكومة عدن في يوليو ١٨٨٤م أمير الضالع على مد سيطرته على قبيلة أهل "قطيب" وغيرها من قبائل ردفان، التي كانت تتعرض باستمرار للطريق العام التي كانت تربط عدن بالضالع، وساندته لذلك الغرض بفرقة عسكرية بريطانية، ولكن على الرغم من أن القوة

---

(١) J.W.Merewether: op.cit, p.16.
(٢) العبدلي: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، ص ١٦٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٥.
(٤) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ٣.
(٥) العبدلي: المرجع السابق، ص ١٨٠.
(٦) مجهول المؤلف: المرجع السابق، ص ٣٢.

التي قادها أمير الضالع إلى تلك المناطق، أجبرت مشايخها في نهاية المطاف، على تقديم الطاعة[١]، إلا أن تلك الطاعة ظلت طاعة شكلية، ولم تكن من الناحية العملية كافية لفرض سلطة أمير الضالع بصورة فعالة على تلك القبائل.

رابعًا - اتفاقيات الحماية:

ليس هناك من شك، في أن التهديد العثماني لنفوذ البريطانيين في جنوب اليمن، كان له الدور الحاسم في دفعهم إلى الانتقال بعلاقتهم بزعماء مناطق الجنوب من مرحلة معاهدات السلام والصداقة، إلى مرحلة أخرى جديدة، تضمن لهم قدرًا أكبر من السيطرة على تلك المناطق. فبعد التوغل العثماني الذي شاهدناه في بعض مناطق قبائل الجنوب، التي دخلت مع بريطانيا في اتفاقيات (سلام وصداقة)، كتب "هنتر Hunter"، مساعد المقيم السياسي في عدن، لحكومة الهند قائلاً: "**ليس لدينا أسانيد دبلوماسية قوية ترتكز على حقوق تكفلها معاهدات يمكن أن نعتمد عليها . . . وإذا ما عقدت معاهدات مع قبائل العبدلي، والفضلي، والعقربي يتم بمقتضاها وضع تلك القبائل تحت الحماية البريطانية، فسيكون من الصعب على العثمانيين التدخل في شؤون هؤلاء الرؤساء**"[٢].

وفي الحقيقة فإن الحماية البريطانية، في ذلك الوقت لم تكن حاجة بريطانية فحسب، بل ومطلبًا محليًا، فزعماء المناطق الشرقية من الجنوب مثل "بلحاف" و"بيرعلي" أقلقتهم التحركات البحرية التي كان يقوم بها العثمانيون على مقربة من سواحل مناطقهم، وخوفًا على ما يبدو من الدخول تحت السيادة العثمانية التي لن تترك أي مجال لسلطاتهم، فضل هؤلاء الزعماء الارتباط بالبريطانيين، الذين أثبتوا عدم تدخلهم المؤثر في الشؤون الداخلية لمناطق الجنوب، وعلى أساس ذلك أرسلوا إلى المقيم السياسي في عدن يلحون عليه بطلب الحماية البريطانية[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٢) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ١٧٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

وفي كل الأحوال، فقد شرعت بريطانيا في غضون تلك المدة بعقد سلسلة من المعاهدات مع حكام الجنوب، سمحت لها ببسط الحماية عليهم مقابل التزامات مالية ودفاعية معينة(١). ومع أن "رايلي Reilly" يشير في كتابه "عدن واليمن"، إلى أن الحماية البريطانية على جزيرة "سقطرى" التي عقدتها في إبريل ١٨٨٦م مع سلطان المهرة، كانت أولى معاهدات الحماية البريطانية في جنوب اليمن(٢)، إلا أننا وجدنا في نصوص الاتفاقية المبرمة بين سلطان لحج والمقيم السياسي البريطاني في عدن، عند شراء البريطانيين لمنطقة الشيخ عثمان من العبادل في فبراير ١٨٨٢م، ما يشير بوضوح إلى أول التزام بريطاني بالحماية في الجنوب فقد ورد في البند السابع والأخير في تلك الاتفاقية الآتي: " **تخضع أراضي السلطان فضل بن علي محسن وورثته وخلفائه للحماية البريطانية من تاريخ هذه الاتفاقية** "(٣).

ومهما يكن من أمر، فقد توالى بعد ذلك توقيع معاهدات الحماية المماثلة لتلك المعاهدة، مع زعماء الكيانات الأخرى في الجنوب، حتى وصلت إلى إحدى وثلاثين معاهدة، ولم تكن مسألة تركيز تلك المعاهدات في بداية الأمر على الكيانات الشرقية من جنوب اليمن تدعو إلى الاستغراب، فالتحركات العثمانية في سواحل اليمن الشرقية من جهة، وعدم دخول كياناتها بأي ارتباطات تعاهديه مع البريطانيين من جهة أخرى، دفع بالبريطانيين إلى ذلك التركيز. وقياسًا بالمعاهدات والاتفاقيات السابقة التي عقدتها بريطانيا مع هؤلاء الزعماء (السلام والصداقة وأمن الطرقات) فإن معاهدة الحماية تشابه تلك الاتفاقيات فقط في أنها غير مقيدة بمدة زمنية محددة، ولكنها بحسب تأكيد "رايلي Reilly" تفوقها في الأهمية(٤)، إذ وفرت للبريطانيين شرعية التدخل في شؤون تلك

---

(١) Wauhope: The Boundary of the Aden Protectorate, p.1.
(٢) Reilly: Aden and the Yemen, p.15.
(٣) سي. يو. ايتشيسن: المرجع السابق، ص٦٣.
(٤) Reilly: op. cit, p.16.

الوحدات القبلية المحمية لاسيما في الجانب الأمني والشؤون الخارجية، دون الحاجة إلى الاحتلال الفعلي للأراضي.

ومن زاوية أخرى فإن اتفاقيات الحماية قد ساعدت الحكام المحليين على تدعيم مراكزهم بين أوساط قبائلهم، ففضلاً عن اعتراف بريطانيا بأن هؤلاء الحكام هم الممثلون لتلك القبائل، فقد ساعدتهم أيضًا المرتبات الشهرية والسنوية والهدايا والإكراميات التي كانوا يحصلون عليها من بريطانيا، وكذلك مظاهر الاهتمام بهم في عدن، على تقوية نفوذهم في مناطقهم، إذ كان البريطانيون الذين سعوا لكسب مزيد من ود زعماء مناطق الجنوب وتعزيز ارتباطهم بالسلطات البريطانية في عدن، يستضيفون هؤلاء الزعماء مع أفراد عائلاتهم في عدن، مرة كل سنة، ولعدة أيام، ويوفرون لهم السكن والمواصلات والغذاء، في أثناء الاستضافة، ويعتمدون لهم مبالغ مالية معينة خلالها، من أجل أن يتمكنوا من شراء الهدايا والتسوق من عدن.

وكان البريطانيون يعبرون عن حفاوتهم باستقبال هؤلاء الزعماء بإطلاق قذائف المدفعية عند زيارة كل سلطان أو أمير، وعدد تلك الطلقات كان يختلف من استقبال إلى آخر (أقلها ثلاث، وأكثرها إحدى عشرة) بحسب مكانة الحاكم عند البريطانيين، فسلطان لحج كان يحظى بمعاملة مميزة عن الآخرين، سواء في عدد طلقات الترحيب، أو في أسلوب المخاطبة، فهو الوحيد في المحمية الغربية الذي منحوه لقب " السمو "[1]. وكذلك الحال كان مع السلطان القعيطي في المحمية الشرقية الذي منحوه اللقب نفسه.

خامسًا - رسم الحدود مع الأتراك:

على الرغم من سحب العثمانيين لقواتهم العسكرية من مناطق القبائل الجنوبية التي ارتبطت بعلاقات تعاهدية مع البريطانيين، إلا أن النزاع بين أطراف

(١) أمين الريحاني: المرجع السابق، ص ٤٤١.

منطقتي النفوذ العثماني والبريطاني في اليمن ظل قائمًا بعد ذلك، لاسيما في إمارة الضالع[١]، وسلطنة الحواشب[٢]. ولاعتبارات سياسية واقتصادية، كان يهم البريطانيين استقرار الأوضاع الأمنية على الحدود، ولذلك رأوا في مسألة ترسيمها أفضل خيار للسيطرة على تلك النزاعات، فحاول المقيم السياسي في عدن منذ مارس **١٨٧٧**م السعي لإقناع العثمانيين على قبول مبدأ تنظيم تلك الحدود[٣]، إلا أن ذلك السعي وغيره، لم يسفر عن أي نتيجة، بسبب عدم تجاوب الحكومة العثمانية.

وفي سنة **١٩٠٢**م تعدل موقف العثمانيين من مسألة الحدود بين مناطق نفوذهم ونفوذ البريطانيين في اليمن، فقررت كل من الحكومة البريطانية والباب العالي الموافقة على تشكيل لجنة مشتركة لتخطيط تلك الحدود، وبدأت تلك اللجنة في السنة نفسها أعمالها على الأرض، وكانت البداية من منطقة **الشيخ سعيد** الواقعة في آخر الزاوية الجنوبية الغربية لليمن، وكان العمل صعبًا للغاية، ليس بسبب كثرة المنازعات القبلية التي لا تحصى في تلك المناطق، بل وبسبب طبيعتها الجبلية الوعرة، ومع ذلك فقد استطاعت اللجنة خلال تلك السنة أن تصل بعملها على الأرض من الشيخ سعيد إلى قرب منطقة الضالع[٤].

وتوقفت تلك اللجنة عن العمل في سنة **١٩٠٤**م بعد أن وصلت فقط بعملها إلى نقطة على وادي "بنا" تبعد قليلاً عن الجهة الشرقية من الضالع، و قرار التوقف في الحقيقة لم يكن عائدًا إلى الخلافات بين الجانبين، وإنما إلى صعوبة العمل في ناحية جبال يافع الشاهقة من ناحية، وإلى ضعف السيطرة الفعالة لكل من العثمانيين والبريطانيين على قبائل المناطق التي تقع ناحية كل طرف من ناحية

---

(١) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخيةعن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ٥٥-٥٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٢- ٣٣.
(٣) د. جاد طه: المرجع السابق، ص ٣٠٠.
(٤) Sir. T. Hickinbotham: Aden, London, 1958, pp.55- 65.

أخرى، ولذلك تمّ الاتفاق بين الطرفين على استكمال رسم الحدود المتبقية على الخريطة، بالخط **البنفسجي** الذي بدأ عند آخر نقطة لخط الحدود المخططة على الأرض، المعروف على الخريطة بالخط **الأزرق**، وتم رسم ذلك الخط على زاوية ٤٥ درجة في اتجاه شمال الربع الخالي، إلى أن وصل في نهايته إلى شبه جزيرة قطر، وهكذا أصبح الخطان الأزرق والبنفسجي يمثلان الحدود الفاصلة بين مناطق نفوذ الإمبراطوريتين في جزيرة العرب[١]، وبمصادقة حكومتي البلدين على الاتفاقية في يناير **١٩١٤**م، قننت الحدود لأول مرة في تاريخ اليمن، وقُسّمت بشكل رسمي إلى شمال وجنوب.

المحميات والحرب العالمية الأولى:

ظل حكام المناطق الجنوبية من اليمن يظنون أن الحماية البريطانية كافية لإزاحة غيوم أي خطر قد يواجههم، وعندما دخلت تلك الحماية على المحك، عند قيام الحرب العالمية الأولى، أثبتت لهم خطأ ما كانوا يظنون، فقد تمكن العثمانيون الذين انضموا إلى الطرف المعادي لبريطانيا في تلك الحرب، من الزحف بقواتهم العسكرية في سنة **١٩١٥**م على أراضي عدد من المحميات البريطانية في جنوب اليمن، ولم يعجز البريطانيون عن توفير الحماية التي تعهدوا بها لحكام الجنوب فحسب، بل وحتى في تقديم المساعدات العسكرية التي تمكن هؤلاء الحكام من مشاغلة ذلك الزحف، ولذلك لم يجد بعضهم – ومنهم السلطان الحوشبي الذي وصل بنفسه إلى عدن طامعًا في الحماية البريطانية التي ظل يتوهمها – من خيار بعد فشلهم في الحصول عليها غير تقديم الطاعة والولاء للعثمانيين[٢] الذين سيطروا على التوالي على مناطق **الأميري، والعلوي، والحوشبي**، وكذلك **لحج**، التي توفي سلطانها بعد أيام من وصوله عدن، متأثرًا بالجراح التي تعرض لها عن طريق الخطأ على أيدي من بعث بهم

(١) Hickinbotham: Aden, p.57.

(٢) العبدلي: هدية الزمن، ص ٢١٣.

البريطانيون لمساعدته.

وفي كل الأحوال فقد أحكم العثمانيون سيطرتهم على لحج بسهولة، ووصلوا بنفوذهم خلال تلك السنة إلى أبواب عدن، عندما سيطروا على منطقة **الشيخ عثمان** التابعة للسيادة البريطانية المباشرة، ومع أن القوات البريطانية استطاعت أن تجبرهم على التراجع من الشيخ عثمان[١]، إلا أنها عجزت عن عمل ذلك في المناطق الداخلية المحمية، التي استمرت خاضعة للسيطرة العثمانية حتى نهاية الحرب، التي أسفرت عن هزيمة السلطنة العثمانية والدول المتحالفة معها، وانسحابها من الجزيرة العربية بموجب اتفاقية الهدنة في عام **١٩١٨م**[٢].

وبصرف النظر عن الأسباب التي حالت دون مواجهة البريطانيين للوجود العثماني في الجنوب، لا شك في أن ذلك الوجود الذي استمر عدة سنوات قد تسبب في إلحاق أضرار كبيرة بالبريطانيين، ففضلاً عن أنه تسبب في قطع الإمدادات التي كانت تصلهم إلى عدن من مناطق الداخل، فإن عدم قيامهم في تنفيذ معاهدة الحماية التي وقعوها من قبل مع زعماء الكيانات الجنوبية عرضهم للسخط، وقلل من هيبتهم في المنطقة.

ومهما يكن من أمر، فيبدو أن العثمانيين في شمال اليمن، قد هدفوا من الدخول في حرب مع البريطانيين في الجنوب، تحقيق غرضين رئيسين:

الأول - البحث عن مخرج من الناحية الاقتصادية بعد الحصار الذي فرضته بريطانيا على الممرات المائية المحيطة باليمن.

والثاني - طرد البريطانيين من عدن والسيطرة على مدخل البحر الأحمر لتعطيل المواصلات البريطانية فيه[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٤.

(٢) Reilly: Aden and the Yemen, p.16.

(٣) د. سيد مصطفى سالم: تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤- ١٩٤٨م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٤م، ص٢١٠.

ومع أن العثمانيين لم يتمكنوا من الوصول إلى عدن لتحقيق ما - ربما - هدفوا إليه، لكنهم في كل الأحوال أصبحوا أسياد المنطقة الداخلية وبخاصة في شمال عدن، إذ فرضوا نفوذهم على معظم كياناتها، إما من خلال سيطرتهم المباشرة على تلك الكيانات، كما لاحظنا في الضالع والحواشب ولحج، وإما من خلال التفاهم الذي أظهره معهم زعماء بعض الكيانات الأخرى، التي كانت تقع على مقربة من القوات العثمانية، والتي خافت من أن تفقد سلطتها نهائيًا على أيديهم إن لم تفعل ذلك، مثل سلطنات الفضلي، ويافع السفلى، ويافع العليا.

ومع كل ذلك، فيمكن القول بأن موقف العثمانيين في اليمن كان في مجمله سيئًا للغاية، فقد انتشرت الأوبئة بين صفوف جيوشهم لاسيما في لحج، وفتكت بأعداد كبيرة منهم(١)، كما أن بعدهم عن مركز السلطنة العثمانية، في ظل انقطاع الإمدادات بفعل الحصار البريطاني، قد ضاعف من متاعبهم وجعلهم لا يخاطرون بمهاجمة عدن.

كما أن موقف الإمام يحيى الذي كان يطمح في حكم اليمن، كان هو الآخر يمثل مشكلة بالنسبة لهم، ومع أنهم حاولوا تأمين جبهته، وتشجيعه للوقوف في صفهم، بوعدهم له بمنحه حضرموت، غير أن ذلك الوعد الذي دفع بحكام حضرموت إلى تقوية روابطهم ببريطانيا خوفًا من أي تدخل للعثمانيين أو للإمام في شؤونهم(٢)، لم يدفع الإمام إلى الوقوف بجدية في صفهم كما كانوا يأملون، فقد فضل الإمام يحيى، لأسباب يسهل فهمها، البقاء طول مدة الحرب على الحياد إلى درجة كبيرة.

وفي كل الأحوال، فقد كان الهدوء الشديد في علاقة العثمانيين في لحج

---

(١) العبدلي: المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٢) جون. سي. ولينكسون: حدود الجزيرة العربية، قصة الدور البريطاني في رسم الحدود عبر الصحراء، ترجمة مجدي عبدالحميد، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ص ٢٠٠.

والبريطانيين في عدن طوال مدة الحرب يثير الدهشة، ويدعو إلى الاعتقاد بأن كلاً منهما - على ما كانت له من صعوبات خاصة - وصل إلى قناعة بتقبل وجود الآخر بجواره، واقتنع بما ملكت يداه. ومع كل ذلك فقد علق البريطانيون في عدن - الذين عجزوا في صد التوغل العثماني في المناطق المحمية - آمالاً على مرحلة ما بعد تلك الحرب التي أنهت العمل باتفاقية ترسيم الحدود بينهم والعثمانيين في اليمن، فانطلقوا يفكرون في إمكان زحزحة تلك الحدود التي حملوها جزءًا من مسئولية عجزهم عن توفير الحماية للكيانات الجنوبية، فقد ورد في مذكرة الكولونيل "وهوب Wauhope"، ضابط المخابرات البريطانية في عدن، التي بعث بها إلى حكومة الهند في سنه **١٩١٦**م قوله: "**من نواحٍ عديدة لا تعتبر هذه الحدود كافيةً في ذاتها، لأنها تتجاهل الاعتبارات العسكرية، ولا تتمتع بميزات دفاع طبيعية، إلا في موقع واحد قرب الضالع. حيث حرمنا من احتلال المرتفعات التي تسيطر على الحدود، والهضاب الخصبة، وتُرك لنا فقط سفوح التلال والصحراوات القاحلة**"[(١)].

واقترح على حكومته في تلك المذكرة أن تعيد النظر في الحدود الشمالية لمحميات عدن، بحيث تتوغل تلك الحدود في شمال اليمن وتجعل معظم مناطقه محميات بريطانية، ومضى في مقترحاته قائلاً: أن امتلاك "تعز" - التي تعد ملتقى الطرقات، وكذلك "ماوية" - سيغير الوضع كليًا لصالح البريطانيين، وسيمكنهم من إقامة مراكز عسكرية أمامية ذات مناخ صحي، ومن باب تأكيده على أنه في حال انسحاب الأتراك من اليمن فإن بريطانيا لن تسمح لدوله أخرى بغزوه، فقد رأى بأنه من الصواب فرض نوع من الحماية على معظم مناطق شمال اليمن، وإبقاء المنطقة الداخلية بيد إدارة عربية مستقلة، واقترح أن يكون الخط بين هاتين المنطقتين خط الحدود المذهبية في اليمن[(٢)].

---

(١) Wauhope: The Boundary of the Aden Protectorate, p.2.

(٢) Ibid, p.4.

وفي التقرير الذي أعده "جاكوب Jacob" المساعد الأول للمقيم السياسي في عدن، أوصى كذلك بمد خط حديدي، يصل ما بين عدن وتعز، وأوصى بالحرص على إبقاء الأمام يحيى مسيطرًا على منطقة نفوذه في شمال المرتفعات اليمنية، وإدخال المناطق الأخرى تحت الحماية البريطانية، لكنه كان ضد استخدام القوة في تحقيق تلك الغاية، وكذلك كان ضد الإدارة المباشرة للبريطانيين على تلك المناطق نظرًا لأنها حسب وصفه تثير العرب وحكامهم(١). وفي كل الأحوال، فإن عدم حماسة حكومة الهند البريطانية لتحقيق مثل تلك الاقتراحات والمشاريع التي كانت تصل إليها من المختصين في عدن، جعل تلك المشاريع عديمة الدلالة.

المحميات بعد الحرب العالمية الأولى:

عند ما انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الحلف الذي وقفت السلطنة العثمانية في صفه، عرض قائد القوات العثمانية في لحج على الإمام استلام المناطق الجنوبية من قواته قبل رحيلها عن اليمن(٢)، بيد أن الإمام يحيى - الذي كان منشغلاً في محاولة بسط سلطته على المناطق التي ورثها عن العثمانيين في شمال اليمن - كان غير مستعد عسكريًا لتلك المهمة، ثم أنه كان - على ما نظن - يأمل من عدم إثارة المشاكل مع البريطانيين في المحميات، أن يحصل منهم على مناطق تهامة، وبالأخص "الحديدة " التي احتلها البريطانيون في نهاية ١٩١٨م(٣)، لإجبار الأتراك على الجلاء من اليمن، وللضغط على أي كيان سياسي يخلفهم في حكم اليمن.

---

(١) د. فاروق أباظة: سياسة بريطانيا في عسير أثناء الحرب العالمية الأولى، ندوة وثائق تاريخ العرب الحديث والمعاصر جامعة عين شمس، كلية الآداب، عام ١٩٧٧م، ص٢٣.

(٢) د. سيد مصطفى سالم: المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) مجموعة من المؤلفين السوفيت: تاريخ الأقطار العربية المعاصر، الجزء الأول، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥م، ص ٤٥٨.

وعلى أية حال، فقد كان التصادم بين سلطتي الإمام والبريطانيين في اليمن أمرًا متوقعًا، فبعد فشل بعثة "جاكوب Jacob" في الوصول إلى صنعاء، بسبب اعتراضها من قبيلة "القحري" في باجل، ساور الإمام الشك في نوايا البريطانيين الذين استمروا يحتفظون بتواجدهم في الحديدة، فأمر قواته في سنة١٩٢٠م باجتياح إمارة الضالع(١)، لممارسة على ما يبدو ضغطًا عمليًا عليهم من أجل تسليمه الحديدة، ومضى في ذلك التصعيد بإعلانه عدم الاعتراف بالحدود التي رسمت بين الأتراك والبريطانيين في اليمن(٢)، وعلى إثر ذلك تدهورت علاقة البريطانيين بالإمام بشكل سريع، ونكاية به سلموا الحديدة لصديقهم الإدريسي، الذي ارتبط بهم في معاهدة حماية في سبتمبر ١٩١٥م(٣)، عندما أخذت بريطانيا وتركيا تتسابقان على كسب مواقف أمراء الجزيرة العربية في أثناء الحرب، والذي كان في الوقت نفسه على عداء مع الإمام، غير أن الإمام الذي كان مشحونًا بالحماسة بسبب انتصاراته الداخلية، شن حربًا على الجهتين، فاستطاع أن ينتزع تهامة وميناء الحديدة من الإدريسي في سنة١٩٢٥م، وكذلك واصل التقدم في أراضي المحميات فاستولى في سنة ١٩٢٢م على البيضاء التابعة لسلطنة الرصاص، وفي سنة١٩٢٤م على مكيراس التابعة لسلطنة العوذلي(٤).

وعمومًا لم تستمر قوات الإمام يحيى زمنًا طويلاً في السيطرة على تلك المحميات البريطانية، إذ أجبرتها عوامل عدة على الخروج منها وعلى مهادنة البريطانيين في عدن، فقبائل المحميات التي ظلت مستقلة لزمن طويل، كانت تكن مقتًا شديدًا لنظام حكم الإمام(٥)، ولا تود الارتباط به، لما يترتب على

(١) Reilly: Aden and the Yemen, p17.
(٢) جون. سي. ولينكسون: المرجع السابق، ص ٢٤٠.
(٣) د. سيد مصطفى سالم: مراحل العلاقات اليمنية السعودية (١٧٥٤- ١٩٣٤م)، خلفية وحوارات تاريخية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٤٦.
(٤) Reilly: op. cit, p.17.
(٥) فرد هوليداي: المرجع السابق، ١١٦.

ذلك الارتباط من أعباء ضرائبية، وتدخل مباشر في شؤونها الداخلية، لذلك وقفت تلك القبائل في صف البريطانيين، أو بحسب تعبير "العرشي" فضلت أن تكون مخلصة لحكومة عدن البريطانية[١]، التي تدفع لها المرتبات والهدايا، ولا تفرض عليها الضرائب.

ومن جهة أخرى لعب التفوق العسكري البريطاني لاسيما في الجو، دورًا في إضعاف موقف الإمام في ذلك النزاع، فالهجمات العديدة التي شنتها الطائرات البريطانية على مواقع متعددة داخل الأراضي التابعة للإمام في سنة **١٩٢٨**م، أدخلت الرعب والذعر في أوساط أهالي تلك المناطق، وتسببت في حدوث خسائر كبيرة لقوات الإمام، دفعتها إلى الانسحاب من معظم أراضي إمارة الضالع، ومرة أخرى أجبرت الهجمات الجوية البريطانية قوات الإمام على الانسحاب في سنة **١٩٣٤**م من بقية أراضي المحميات[٢]، ولم تبق في يده غير منطقة البيضاء التي لم يوقع سلطانها معاهدة حماية مع بريطانيا[٣].

وعلى الرغم من التحسن النسبي الذي شهدته العلاقة بين البريطانيين والإمام في المدة التي أعقبت معاهدة صنعاء في سنة **١٩٣٤**م، إلا أن بريطانيا وجدت نفسها مدفوعة بأسباب عدة إلى إعادة النظر في سياستها مع المحميات في جنوب اليمن.

فقلق البريطانيين من نوايا الإمام يحيى تجاه أراضي المحميات من جهة، ومن الدور الذي بدأت تلعبه إيطاليا في شمال اليمن والقرن الإفريقي من جهة أخرى - في ظل ازدياد أهمية عدن في المبادلات التجارية، وقربها من مناطق الاستثمارات والمصالح البريطانية في مجال النفط في إيران والعراق، وقرب حصول الهند على استقلالها - جعل بريطانيا تقرر مد نفوذها بصورة أكثر فعالية إلى مناطق

---

(١) حسين بن أحمد العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام، مطبعة البرتيري، مصر، ١٩٣٩م، ص ١٨٦.

(٢) Reilly: Aden and the Yemen, p.17.

(٣) جون. سي. ولينكسون: المرجع السابق، ص ٢٠٣.

المحميات، وكذلك إحداث تغييرات في إدارة شؤون مستعمرة عدن.

فبعد أن كانت مستعمرة عدن في الماضي خاضعة لإشراف بومباي، أصبحت منذ **١٩٣٢**م تحت الإشراف المباشر لحاكم الهند، ومن ثَمَّ ارتبطت مباشرة بوزارة المستعمرات البريطانية في إبريل **١٩٣٧**م(١). وعقب ذلك بدأت لندن تهتم قليلاً بتحسين النظام الإداري للمحميات، بعد أن تركتها لزمن طويل في حالة الجمود والتخلف التي كانت تعيشها، ففي عام **١٩٣٧**م قسمت المحميات على وحدتين إداريتين هما:

- **محمية عدن الغربية.**
- **محمية عدن الشرقية.**

وقسمت إدارة المحمية الغربية بدورها على خمس مناطق هي:

* **المنطقة الشمالية الشرقية**: تضم إمارة بيحان، وسلطنة العوالق العليا، ومشيخة العوالق العليا.

* **المنطقة الجنوبية الشرقية**: تضم سلطنة العواذل، وسلطنة العوالق السفلى، واتحاد دثينة.

* **المنطقة الوسطى**: تضم سلطنة الفضلي، وسلطنة يافع السفلى، وسلطنة ومشيخات يافع العليا.

* **المنطقة الجنوبية الغربية**: تضم سلطنتي لحج، والحوشبي، ومشيختي العقربي، والعلوي.

* **المنطقة الشمالية الغربية**: تضم إمارة الضالع، ومشيخات الشعيب، والمفلحي، وردفان(٢).

---

(١) Europa Publications The Middle East and North Africa, p.72.

(٢) صلاح العقاد: المرجع السابق، ص ١١٤.

وتشكلت المحمية الشرقية التي أصبحت في تلك المدة أقل تجزئة من المحمية الغربية، من خمس سلطنات هي: القعيطية، والكثيرية، و المهرة، وسلطنتا الواحدي، إحداهما في بلحاف والأخرى في بيرعلي، اللتان دمجتا فيما بعد بسلطنة واحدة(١).

وفي كل الأحوال فقد كان حاكم مستعمرة عدن، الذي كان يطلق عليه لقب (الوالي) تمشيًا مع التسمية التي ألف عليها العرب، يقف على هرم الإدارة البريطانية في المستعمرة وفي المحميات، فهو نائب الملك، ورئيس الإدارة المدنية، وقائد الجيش الأعلى في المستعمرة والمحميات، ويليه في المرتبة السكرتير العام لحكومة مستعمرة عدن الذي ينوب عن الوالي في أثناء غيابه، والذي يعد العمود الفقري لتلك الإدارة، ثم يليهم في المسئولية عن إدارة المحميات (المعتمد البريطاني) أحدهما في المحمية الغربية، والآخر في المحمية الشرقية(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن التهديدات التي تعرضت لها المحميات، من الإمام وقبله من العثمانيين، دفعت بالبريطانيين في عدن إلى اتخاذ عدد من الخطوات العسكرية لمقاومة تلك التهديدات، فابتداء من سنة **١٩٢٨**م، أصبحت عدن مقرًا لقوة بريطانية جوية، وكما لاحظنا، فقد أثبتت الطائرات البريطانية فاعليتها في كثير من الأحداث والمواجهات العسكرية التي كانت تدور على الحدود أو داخل المحميات نفسها، وانتقلت المسئولية الدفاعية عن عدن، منذ تلك السنة، من وزارة الحربية البريطانية إلى وزارة الطيران(٣).

وفي غضون ذلك الوقت أسس البريطانيون في عدن، قوة عسكرية من المشاة المحليين عرفت باسم قوات محمية عدن "الليوي"، سلحت كتائبها بسلاح خفيف

---

(١) Tom Little: south Arabia, p.15.

(٢) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن ومحمياتها، ص ١٠٠.

(٣) Reilly: Aden and the Yemen, p.20.

و متوسط، وأسندت لها عدة مهام عسكرية، منها حراسة المطارات والمقرات الحكومية، وكذلك حراسة جزيرتي بريم و كمران[١]. وبهدف تعزيز الأمن والاستقرار داخل المحميات نفسها، أسس البريطانيون قوة عسكرية أخرى في المحمية الغربية عرفت باسم "الحرس الحكومي"، ومع أن أفراد ذلك الحرس وزعوا على عدد من السلطنات والمشيخات، وكانوا يخضعون في بعض المسائل لزعماء تلك المحميات، إلا أن المسئولية الأساسية عن إدارة وإنفاق ذلك الحرس كانت بيد السلطات البريطانية، وفضلاً عن تلك الوحدات العسكرية التي سبق ذكرها، تكونت خلال تلك المدة قوات محلية أخرى في معظم السلطنات، عرفت باسم "الحرس القبلي"، وكانت تخضع كليًا لسيطرة حكام تلك السلطنات والإمارات، غير أن تمويلها كان يعتمد بكامله على السلطات البريطانية.

ومع أن الوضع العسكري في المحمية الشرقية كان لا يثير قلق البريطانيين، بالقدر الذي كان يثيره الوضع في المحمية الغربية التي ترتبط حدودها مع دولة الإمام، إلا أن البريطانيين سعوا إلى تحقيق مزيد من الاستقرار الأمني في المحمية الشرقية، فأسسوا فيها قوة عسكرية مستقلة عرفت باسم "جيش البادية الحضرمي" كانت مهمتها في الدرجة الأولى المحافظة على أمن الحدود، والسيطرة على القبائل البدوية، وكان ذلك الجيش، شأنه شأن جيش "الليوي" في المحمية الغربية، يخضع مباشرة في كل شؤونه المالية والعسكرية لحاكم عدن العام، ولم تكن في المحمية الشرقية قوة عسكرية تقابل "الحرس الحكومي" الموجود في المحمية الغربية، لكن كانت هناك قوات عسكرية صغيرة تابعة لكل سلطنة من سلطنات المحمية الشرقية[٢]، على غرار الحرس القبلي في المحمية الغربية.

---

(١) وزارة الإرشاد الاتحادية: التقرير السنوي (٦٤-١٩٦٥م) لاتحاد الجنوب العربي، صادر في سنة ١٩٦٥، مطبوع، ص ١٦٨.

(٢) Reilly: Aden and the Yemen: p13-14.

وفي كل الأحوال فقد استخدمت قوات "محمية عدن" و "جيش البادية الحضرمي" بفاعلية، سواء في تأمين حدود المحميات لاسيما الغربية، أو في إخضاع القبائل والعشائر المتمردة عن طوع حكامها الموالين للبريطانيين، أو في ملاحقة ومعاقبة ناصبي الكمائن، وقطاع الطرق، وفي أوقات كثيرة كانت تساند تلك القوات، الطائرات البريطانية التي كانت تنزل العقاب الجماعي بأفراد القبيلة أو العشيرة التي لا تنصاع للأوامر(١).

وعمومًا فقد أدى العقاب الجماعي - في بلاد لم تألفه من قبل - إلى تعزيز قبضة حاكم عدن البريطاني على شؤون المحميات من جهة، وتعزيز قبضة الحكام المحليين على قبائلهم من جهةٍ أخري، ولعل أهم نتائج ذلك العقاب الجماعي، ما حققه المستشار أو المعتمد البريطاني في المحمية الشرقية "انجرامس"(٢)، من سيطرة على قبائل حضرموت، لاسيما في النواحي البدوية والقروية التي كانت لا تعرف الأمن والاستقرار، والتي - حسب قول "رايلي" - لم يكن بمقدور حكام السلطنتين الأثرياء الذين كوّنوا أموالهم في سنغافورة، وجاوه، والهند وضع حد لها(٣).

معاهدات الاستشارة:

في ضوء تزايد حاجة البريطانيين لتعزيز نفوذهم في مناطق المحميات، لاعتبارات سبق لنا ذكرها، أصبحت اتفاقيات الحماية، من وجهة نظرهم، غير كافية لتحقيق ذلك الغرض، فاتفاقيات الحماية على الرغم من أنها سمحت

---

(١) فان درميولين: رحلة في جنوب الجزيرة، ترجمة د. محمد سعيد القدال، دار جامعة عدن، للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٢م، ص ٢٨٢.

(٢) قضى " انجرامس " حوالى خمس عشرة سنة في جنوب الجزيرة العربية، و موريس، و زنجبار، فدرس ميول سكان تلك المناطق وأخلاقهم وعاداتهم، و من خبرته الطويلة تلك، نجح في إدارة السياسة البريطانية في حضرموت عندما كان معتمدًا للمحمية الشرقية.

(٣) Reilly: op. cit, p21.

للسلطات البريطانية في عدن بالتدخل بين الحين والآخر في الشؤون الداخلية للمحميات، لاسيما عندما كان الأمر يتعلق بتحقيق الأمن وحفظ النظام، إلا أن المحميات بصفة عامة ظلت خلال عهد تلك الاتفاقيات، مستقلة إلى حدود بعيدة في أوضاعها الداخلية.

واكتسبت حاجة البريطانيين تلك دافعًا قويًا، بعد توقيعهم مع الإمام يحيى معاهدة صنعاء في **١٩٣٤**م، فمنذ ذلك الوقت أخذت سياستهم الهادفة إلى مزيد من التغلغل في مناطق الداخل، تكتسب طابعًا نظاميًا فعالاً لاسيما مع المحميات الرئيسة. إذ نهجوا إلى إبرام معاهدات جديدة مع حكام المحميات، تستطيع أن تفي بذلك الغرض، وهي التي عرفت باسم (معاهدات الاستشارة)، فتلك المعاهدة ألزمت الحكام الموقعين عليها، التعاون الكامل مع والي عدن في كل الأوقات، وقبول مشورته في كل ما يتعلق بانتعاش مناطقهم وتطورها، أو بمعنى آخر قبول التدخل في إدارة شؤونهم الداخلية.

وكانت أولى اتفاقيات الاستشارة، التي غدت نظامًا سمح للبريطانيين بممارسة سيطرة أقوى على المحميات، قد وقعت مع السلطان القعيطي في سنة **١٩٣٧**م، ثم مع السلطان الكثيري في سنة **١٩٣٩**م[١]، وعلى ما يبدو فإن قيام الحرب العالمية الثانية شغل بريطانيا عن توقيعها مع زعماء المحميات الأخرى، لكنها في كل الأحوال عادت مع نهاية تلك الحرب - مدفوعة بأسباب جديدة - إلى العمل على تعميم تلك المعاهدة على المحميات المهمة الأخرى، فوقعتها خلال (٤٤-١٩٤٥م) خمس سلطنات وإمارات هي: **الفضلي، ويافع السفلى، والعوالق السفلى، وبيحان، والضالع**[٢].

وعلى الرغم من أن نصوص تلك المعاهدات متشابهة، أو تكاد أن تكون نسخة واحدة، إلا أن تلك التي عقدتها بريطانيا مع سلاطين حضرموت، تميزت

---

(١) مجهولة المؤلف: دراسة تاريخية عن مستعمرة عدن و محمياتها، ص ٧٢.

(٢) Little: South Arabia, p. 22.

في أنها نصت على ألا تشمل مشورة المقيم البريطاني المسائل التي لها علاقة بالأمور الدينية، بخلاف المعاهدات الأخرى، التي لم تتعرض لمثل ذلك الاستثناء. و كما هو الحال في معاهدات الحماية، فليس هناك مدة زمنية محددة لسريان معاهدة الاستشارة أو حتى لمراجعتها.

ومهما يكن من أمر، فقد استمرت بريطانيا في الضغط على الحكام الآخرين الذين ترددوا في قبول معاهدة الاستشارة، فوقعها في سنة ١٩٤٩م السلطان الواحدي في بلحاف، وفي ١٩٥١م وقعها شيخ العوالق العليا وسلطان العواذل، ومن ثَمَّ سلطان المهرة، وآخرهم كان سلطان لحج الذي وقعها في سنة ١٩٥٤م[١]، وبذلك بلغ عدد معاهدات الاستشارة ثلاث عشرة معاهدة، وهي في كل الأحوال قليلة العدد، مقارنة باتفاقيات الحماية التي سبقتها والتي بلغ عددها إحدى وثلاثين اتفاقية[٢].

ولا يوجد تفسير آخر لذلك الفرق الكبير بين عدد معاهدات الاستشارة واتفاقيات الحماية، غير أن البريطانيين تعمدوا تغيير الخريطة السياسية للمحميات، فقد سعوا جاهدين - لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية كما سيأتي - إلى تجميع تلك المحميات الكثيرة والصغيرة، في أقل عدد ممكن من الوحدات السياسية والإدارية، تمهيدًا لمحاولة ضمها في كيان أو كيانين اتحاديين كبيرين.

وخلاصة القول، فإن معاهدات الاستشارة التي يقول " انجرامس" إنها نقلت من تجربة الإدارة البريطانية في الملايو[٣]، مثلت تطورًا مهمًا في علاقة بريطانيا بالمحميات، ففي حين سمحت بإرساء قاعدة أولية للإدارة المحلية

---

(١) Europa Publications The middle east and north Africa, p.73.

(٢) Reilly: Aden and the Yemen, p.22.

(٣) Ingrams: Political Development in The Hadhramaut, Gov.Press Aden, 1945, p. 2.

المنظمة، في المحميات التي شملتها معاهدات الاستشارة، فقد وفرت ذريعة قانونية للمستشارين البريطانيين بالتدخل في كل كبيرة وصغيرة في الشؤون الداخلية لتلك المحميات.

المحميات بعد الحرب العالمية الثانية

اكتسبت المحميات البريطانية في جنوب اليمن، بعد الحرب العالمية الثانية، اهتمامًا غير مسبوق من السلطات البريطانية بأوضاعها العامة، ولكي لا يكون لبس، فلابد أن نوضح أن مصدر ذلك الاهتمام يعود في الأساس إلى أهمية الدور الذي أصبحت تضطلع به مستعمرة عدن في المصالح الاستراتيجية البريطانية، بعد التحولات العالمية التي زحزحت الإمبراطورية البريطانية عن مكانتها المتميزة السابقة، وليس لشيء آخر.

فقبل الحرب العالمية الثانية كانت عدن تمثل قلعة في سلسلة القلاع الاستعمارية العديدة للإمبراطورية البريطانية الواسعة، الممتدة من جبل طارق إلى مالطة، فقبرص، فالسويس، فعدن، فسنغافورة، فهونج كونج، وغيرها. أما بعد الحرب فقد اختلف الأمر إذ تضاعفت أهمية عدن في نظر بريطانيا، بعد أن خسرت عددًا كبيرًا من القواعد والمواقع الاستعمارية، وبخاصة في منطقة الشرق الأقصى، التي تحولت مهمة الدفاع عنها بالكامل من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

وعلى الرغم من أن الحرب لم تُلحق أضرارًا كبيرة ببريطانيا في مناطق البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط، فقد بدت وكأنها خرجت من الحرب تحتل مركزها نفسه المسيطر من قبل، لكن مع ذلك، فالحقيقة التي نتجت عن الحرب هي أن الأوضاع العامة لبريطانيا بعد الحرب لم تعد تشبه في قليل أو كثير أوضاعها قبل الحرب، فقدراتها الاقتصادية والعسكرية تراجعت بدرجة كبيرة، ليس بسبب ما استنزفته منها الحرب فحسب، بل وبسبب فقدانها عدة ممتلكات

استعمارية، إذ انتزعت عدة بلدان استقلالها عن بريطانيا، أبرزها الهند، ولذلك وجدت نفسها مضطرة للاعتماد بصورة أفضل على ما تبقى لها من مناطق استعمارية، فبرزت أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه عدن في السياسة البريطانية في حقبتها الجديدة، و**أول** تلك الأهمية: أن تكون عدن قاعدة تعتمد عليها العمليات العسكرية اللازمة لحماية المصالح البريطانية في الجزيرة العربية والخليج. و**ثانيها**: أن تؤلف عدن جزءًا من إسهام بريطانيا في النظام العالمي الشامل للدفاع الغربي. و**ثالثها**: أن تكون مقرًا لحامية عسكرية تضمن استمرار الأمن والنظام في المستعمرة نفسها وفي المحميات المحيطة بها[١].

وعلى هذا الأساس، شرعت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، في تبني جملة من الإصلاحات في مستعمرة عدن، وفي المحميات، بهدف نقل المنطقة إلى وضع سياسي جديد، فبموجب قانون تطوير المستعمرات وإنعاشها حصلت المحميات في سنة **١٩٤٥**م على منحة مالية قدرها "خمسمائة ألف" جنيه إسترليني لتطوير أوضاعها[٢]. ورافق ذلك الدعم المالي، حملة توعية عامة، قام بها المختصون البريطانيون في عدن، للتمهيد لسياسة حكومتهم الجديدة، لعل أهمها المحاضرات التي ألقاها الدكتور"بتري" في **١٩٤٥**م، في عدد من المقرات العامة، والتي ركز فيها على المجالات التي يجب إصلاحها في المحميات وهي من وجهة نظره **التعليم، والصحة، والطرقات، والزراعة**[٣].

وكان قد سبق لبريطانيا، الاهتمام بتحسين وضع الزراعة في المحميات القريبة من عدن منذ عام **١٩٤٠**م، وذلك بسبب الحاجة التي برزت في أثناء تلك الحرب إلى الإنتاج الزراعي المحلي، بسبب تعثر وسائل الاتصال بين عدن والخارج، الذي نتج عنه تدهور مخيف في الحياة المعيشية لسكان مناطق

---

(١) Gillian King: Imperial Outpost - Aden, London, Toronto, 1964, p. 7.

(٢) Reilly: Aden and the Yemen, p.9.

(٣) فتاة الجزيرة: عدن، العدد (١٥٥)، ٥مايو ١٩٤٦م.

الداخل، وبخاصة حضرموت التي انتشرت فيها المجاعة بسبب توقف التحويلات المالية التي كان يبعث بها المهاجرون[١]، وكذلك انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة في عدد من مناطق المحميات، وبخاصة في يافع[٢].

وكانت أولى مناطق المحميات التي شدت اهتمام البريطانيين هي، منطقة **دلتا أبين**، حيث قدمت حكومة عدن في سنة **١٩٤٠**م، معونات لمزارعيها قدرها "عشرون ألف" جنيه إسترليني على شكل مواشٍ، وبذور، ومنتجات غذائية، لتحسين نشاطها الزراعي[٣]، وتضاعف اهتمامهم بتلك المنطقة عندما أدخلوا إليها زراعة القطن، الذي انتظروا منه أن يضمن لبريطانيا التعويض في حال انقطاع مصادر القطن الأخرى، ثم أسسوا فيها **لجنة أبين** في عام**١٩٤٧**م التي كان يديرها ضابط بريطاني، ويشترك في عضويتها ممثلون عن سلطنتي الفضلي ويافع السفلى، وعن المزارعين[٤]، والتي كانت مهمتها الرئيسة زيادة إنتاج القطن في منطقة الدلتا، وذلك لتعويض بريطانيا عن الكمية التي احتفظت بها الهند بعد استقلالها من جهة، وتحسبًا لانقطاع إمدادات القطن من مصر التي خرجت في سنة **١٩٤٨**م من منطقة الإسترليني، وبدأت علاقاتها الاقتصادية ببريطانيا تتوتر من جهة أخرى[٥].

وفي إطار المساعي البريطانية لتوسيع زراعة القطن في المحميات، عملوا في وقت لاحق على تكوين مشروع آخر مشابه في "دلتا تبن" في لحج. ثم أقاموا في بداية الخمسينيات معملين لحلج القطن وتعبئته، أحدهما في أبين والآخر في لحج، وأقاموا في **١٩٥٥**م مختبرًا زراعيًا في أبين سمي "**مركز الأبحاث**

(١) أحمد زين السقاف: أنا عائد من اليمن، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٦٢م، ص١٠١ .
(٢) فتاة الجزيرة: العدد (١٥٥)، ٢٤يناير ١٩٤٣م.
(٣) د. محمد عمر الحبشي: المرجع السابق، ص ٢٢٩.
(٤) Reilly: Aden and the Yemen, p.67.
(٥) د. محمد محمد سطيحه: اليمن شماله وجنوبه، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١١٤.

الزراعية" كانت مهمته الأساسية تحليل التربة، ودراسة الحشرات والآفات الزراعية، وتحسين أنواع جديدة من القطن والمزروعات الأخرى[١]، وعلى الصعيد نفسه، نشطت إدارة الزراعة في عدن في إرسال الخبراء الزراعيين إلى مناطق المحميات لوضع الدراسات الضرورية، لتحسين الإنتاج الزراعي في تلك المناطق، لعل أبرزهم الخبير "هارتلي" الذي ظل يتنقل بين المحميات، والذي ذاعت شهرته حينها بين المزارعين[٢].

وعلى أية حال فقد كان من نتيجة ذلك النشاط الزراعي الذي شهدته بعض مناطق المحميات، مثل: **أبين، لحج، وادي حضرموت، بيحان، أحور، مودية، لودر، مكيراس**، تحسن وتنوع ملحوظ في الإنتاج الزراعي لتلك المناطق، واستطاع أن يلبي قدرًا كبيرًا من الاحتياجات المتزايدة لتلك المزروعات في مستعمرة عدن، وفي مدن المحميات الأخرى، التي ظهرت بعضها كنتيجة لذلك الانتعاش الزراعي مثل مدينتَيْ **جعار** و**زنجبار** في أبين.

ولم يقتصر اهتمام البريطانيين بالمحميات في تلك المدة على الجانب الزراعي فحسب، بل وعلى الجانب التعليمي، الذي بدأوا يولونه بعض الاهتمام حتى قبل قيام الحرب العالمية الثانية، فعندما كان "**برنارد رايلي**" حاكمًا لعدن (**١٩٣٠-١٩٤٠م**) عمل على تخفيض المبالغ المالية التي كانت تقدم للسلاطين والأمراء، لصالح بناء مدرسة لأبنائهم في عدن، وبعد مدة يسيرة من افتتاحها، انتقلت مسؤوليتها في سنة **١٩٣٨م** من حكومة عدن إلى إدارة المعتمد البريطاني[٣].

وفي إطار ذلك الاهتمام، أقرت الحكومة البريطانية في سنة **١٩٤٣م** بناء كلية في عدن[٤]، توفر تعليمًا متقدمًا لأبناء عدن، وأبناء سلاطين المحميات

---

(١) قحطان الشعبي: المرجع السابق، ص٨١.
(٢) فتاة الجزيرة: العدد (٥٦٥)، إبريل، ١٩٥١م.
(٣) البكري: في جنوب الجزيرة العربية، ص ١٥.
(٤) Gavin: Aden Under British Rule, p. 319.

ومشايخها، وفيما يبدو فقد هدفت بريطانيا من وراء تلك الخطوة، التي أتت في أثناء الحرب، إلى ضمان مواقف سكان الجنوب من تلك الحرب التي كانت لها امتدادات قريبة من عدن، فوزير المستعمرات قال في البرقية التي أرسلها إلى عدن بهذا الخصوص: "**إن تلك الكلية ستكون رمزًا للصداقة بين أهالي بريطانيا وأهالي الجزيرة العربية**"(١). وعمومًا فقد كانت تلك المدرسة - التي افتتحت الدراسة بها رسميًا في سنة **١٩٥٢**م تحت اسم "كلية عدن" - أول مدرسة ثانوية وأكاديمية للبنين في عدن، وكان قد سمح لأبناء المحميات باحتلال**٢٠**٪ ليس من مقاعد تلك الكلية فحسب، بل ومن مقاعد مدارس عدن الثانوية بشكل عام(٢).

ونقطة التحول الأساسية في خدمة التعليم في المحميات، كانت بعد الحرب، فبعد اتفاقية الاستشارة التي وقعها معظم حكام المحميات الرئيسة في تلك المدة، لعب المستشارون وإدارة المعتمد البريطاني دورًا مهمًا في تشجيع عدد من السلطنات على نشر التعليم الابتدائي والمتوسط في مناطقها، ولذلك افتتحت تباعًا عدد من تلك المدارس لاسيما في حضرموت، ولحج، والفضلي، ويافع السفلى، والعوذلي.

وبهدف تعزيز الدور البريطاني في مناطق الداخل، عملت السلطات البريطانية في عدن، من جهة على تقوية سلطة حكام المحميات بين أوساط قبائلهم، ومن جهة أخرى على إلحاق بعض المحميات والوحدات القبلية الصغيرة التي كانت لا تحتكم لأي سلطة، بالسلطنات والإمارات المجاورة لها، فعادت وألحقت محميات الصبيحة وقبائلها مرة أخرى بسلطنة لحج في منتصف الخمسينيات، وحاولت من جديد مد نفوذ أمير الضالع على قبائل ردفان

(١) فتاة الجزيرة: العدد (١٨٢)، أغسطس ١٩٤٣م.

(٢) علي صلاح الأرضي: تاريخ التعليم في عدن، دار جامعة عدن، ط١، ٢٠٠١م، ص ٢٣١-٢٣٢.

والقطيبي، وكذلك عمل الميجر "سيجر" المعتمد البريطاني حينها في المحمية الغربية، على توسيع اتحاد دثينة القبلي ليشمل القبائل القريبة منه، التي لا تحتكم للسلطنات المجاورة[١]. وتم توحيد المحميات في "بيرعلي" و"بلحاف" و"عرقة" تحت سلطة واحدة، وأدخلت تعديلات إدارية على بلاد الفضلي، وأحور، لتسهيل السيطرة عليهما[٢].

ومن أجل تدعيم سلطة حكام المحميات، تدخلت القوات العسكرية التي كانت تشرف عليها بريطانيا مثل جيش محمية عدن "الليوي"، و"جيش البادية الحضرمي"، لإخضاع القبائل والجماعات الخارجة عن أي سيطرة، فبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة في **١٩٤٥**م تدخلت القوات العسكرية في حضرموت بمساندة سلاح الجو البريطاني وجيش محمية عدن، للقضاء على إمارة "بن عبدات" في منطقة "الغرفة"[٣]، بعد أن فشلت المفاوضات في ثنيه عن مشروعه السياسي. وكان بن عبدات قد عاد إلى حضرموت من إندونيسيا قبل عدة سنوات، ولديه من المال ما حاول به تأسيس دولة مستقلة في حضرموت[٤]، انطلاقًا من منطقة "الغرفة" التي أراد منها أن تكون نواة لتلك الدولة، والتي لا مجال أمامها في التوسع، إلا على حساب سلطنتي الكثيري والقعيطي.

وعلى أية حال، فتصميم البريطانيين على إحكام السيطرة الأمنية على مناطق المحميات، كان واضحًا في أماكن كثيرة، وفي أقات متعددة، ففي نهاية **١٩٤٨**م

---

(١) محمد علي لقمان: المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٢) فتاة الجزيرة: العدد (٥٣٧)، ١٠سبتمبر١٩٥٠م.

(٣) محمد سعيد داود: حركة بن عبدات في الغرفة بحضرموت (١٩٢٤-١٩٤٥م)، ندوة المقاومة الشعبية بحضرموت، كلية التربية المكلا، ٢٥، ٢٦ فبراير ١٩٨٩م، ص٩١-١٠١ .

(٤) صالح علي باصرة: دراسات في تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر، دار المسيرة، عمان، ط١، ٢٠٠١م، ص ٨٧.

قاد الميجر "سنبل " مساعد المستشار للشؤون العسكرية في حضرموت شخصيًا، حملة عسكرية على وادي عمد لإجبار قبائل آل "صُليب"، وآل "بلعبيد"، وقبيلة "الجَعدة " للخضوع لحكم السلطات الرسمية في حضرموت(١). وفي منتصف١٩٥٠م بعث البريطانيون بجيش محمية عدن لإخضاع قبيلة "المنصوري" من آل باكازم التي كانت خارجة عن أي سيطرة(٢).

وحاولت السلطات البريطانية، من جهة أخرى، إعاقة الإمام عن التدخل في شؤون المحميات، من خلال إقامة حوالى خمسة وعشرين مركزًا عسكريًا على حدود المحميات الغربية(٣)، أهما: **بيحان ومكيراس، والضالع، وكرش،** ووضعت لحراستها فِرَقًا من رجال الحرس الحكومي.

وعلى صعيد آخر حاول المستشارون السياسيون، تحسين أداء حكم السلطنات والإمارات التي استوعبتهم، فظهرت فيها نتيجة لذلك، الإدارات المتخصصة في **الزراعة، والصحة، والمعارف المالية، والتموين، والدفاع، والأمن،** وسنت قوانين ولوائح في بعض تلك السلطنات لتنظيم عمل تلك الإدارات(٤)، وظهرت مجالس السلطنات والإمارات التي ترأسها الحكام، والتي تكونت من مديري الإدارات وبعض وجهاء العشائر ومشايخها في تلك السلطنات والإمارات.

وفي خضم تلك التطورات بدأت بعض السلطنات تتطلع إلى الحكم الدستوري وأولها لحج، حيث وافق سلطانها في عام **١٩٤٧**م على سن دستور

---

(١) فتاة الجزيرة: العدد (٤٥٤)، ١٦يناير ١٩٤٩م.

(٢) المرجع نفسه: العدد (٥٢٦)، يونيو ١٩٥٠م.

(٣) مجموعة من المؤلفين السوفييت: تاريخ اليمن المعاصر (١٩١٧- ١٩٧٢م)، ترجمة محمد علي البحر، راجعه د. محمد أحمد علي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٦٥.

(٤) محمد علي الجفري: حقائق عن جنوب الجزيرة العربية، رابطة الجنوب العربي، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ص ١٩.

للسلطنة ينص على قيام مجلسين يعين السلطان أعضاءهما، أحدهما تنفيذي والآخر تشريعي[١]، وتم العمل بذلك الدستور، الذي يعد أول دستور في الجزيرة العربية، في ١٦ مايو١٩٥١م[٢].

ولم تتهاون السلطات البريطانية مع الحكام الذين حاولوا عدم الامتثال لتلك الإصلاحات الإدارية، فعندما تلكأ سلطان يافع السفلى عيدروس بن محسن في تنفيذها، لم يغفر له البريطانيون، فقد أرسل إليه المستر "آلن" نائب المعتمد البريطاني في المحمية الغربية خطابًا في أكتوبر ١٩٤٨م جاء فيه: "**إنه بسبب رفضكم قبول نصح الحكومة البريطانية، وعرقلتكم للمشاريع النافعة التي اقترحت بالنيابة عن أهالي أبين، فقد أوقف سعادة الوالي (الحاكم) سلطتكم في حكم المنطقة اليافعية في أبين، حتى يقتنع من أنكم غيرتم وجهة نظركم إلى التعاون والصداقة**"[٣]. ولم يجد السلطان عيدروس من سبيل لاستعادة سلطته على تلك المنطقة الخصبة، غير الرضوخ للشروط البريطانية، التي قدمها إليه المعتمد البريطاني المستر "سيجر" في أثناء لقائهما في "زارة "عاصمة السلطنة العوذلية في إبريل ١٩٤٩م، والتي كانت بدون شك قاسية عليه، وأبرز هذه الشروط: أن يكون ابنه محمد نائبًا على المنطقة التابعة للسلطنة في أبين، وأن تنظم الأمور المالية وفق المشورة البريطانية، وأن تشكل فرقة عسكرية في السلطنة من جيش محمية عدن، وأن يشرف الضابط البريطاني على الإدارة في أبين التي يتولاها نجل السلطان[٤].

ووصل الأمر بالبريطانيين حد استخدام القوة العسكرية مع الحكام الذين

---

(١) فتاة الجزيرة: العدد (٣٨٠)، ١٣يوليو ١٩٤٧م.

(٢) مجموعة من المؤلفين السوفييت: تاريخ الأقطار العربية المعاصر، الجزء الأول، ص٥١٤ .

(٣) رسالة نائب المعتمد البريطاني في المحمية الغربية إلى السلطان عيدروس، مرجع ٥ / ١٠م/٤٦/٣١٠٥، بتاريخ ١٨/١٠/١٩٤٨م.

(٤) فتاة الجزيرة: العدد (٤٦٨)، ٢٤إبريل ١٩٤٩ م.

تمادوا في رفض نصائحهم، ففي السنة نفسها هاجمت الطائرات البريطانية الشيخ محمد مقبل السقلدي في شمال غرب يافع العليا، لرفضه التدخل البريطاني في شؤون مشيخته، فاضطر تحت تأثير تلك الهجمات المدمرة، إلى ترك المشيخة واللجوء إلى شمال اليمن(١).

ولأسباب لها علاقة بحرص البريطانيين على تطبيق الإصلاحات الإدارية في حكم المحميات من جهة، وللضغط على الحكام من جهة أخرى، نهجوا إلى تعيين نواب للسلاطين وللأمراء، كانت مهمتهم الرئيسة الإشراف على الشؤون الإدارية والمالية للحكم، وقد أثبتت تلك السياسة فائدتها للبريطانيين، ففي مرات كثيرة استخدموا النائب سلاحًا في وجه الحاكم إذا ما حاول الخروج عن طوعهم.

وأخيرًا يمكن الإشارة إلى أنه في غمرة ذلك الاهتمام البريطاني بمحميات جنوب اليمن، أخذت فكرة وحدة تلك المحميات تكتسب أهمية متزايدة في السياسة البريطانية، ولذلك عملت السلطات البريطانية في عدن على تشجيع حكام المحميات لقبول تلك الفكرة التي تحولت بصورة سريعة بعد الحرب إلى مشروع عمل، وعلى الرغم من الصعوبات والعراقيل التي كانت تعترض طريق ذلك المشروع إلا أن البريطانيين لم يكلّوا ولم ييئسوا، فظلوا كما سنلاحظ ذلك في الفصل التالي يدفعون حكام المحميات المرة بعد الأخرى للتفاعل الإيجابي مع مشروع الاتحاد.

❁❁❁❁❁

(١) عبدالله علي مرشد: نشوء وتطور الحركة النقابية والعمالية في اليمن، وزارة الثقافة عدن، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص١٤٨.